أنا مريا شميل النموذج النسوي للموضوعية في الكتابات الاستشراقية

حفيظي حيزية بن النومي مسعودة

جامعة سطيف 2

ملخص

لقد كان لمريا لشـــميل الدور الحاســـم في التعريف بالإســـلام والحضـــارات والشـــرقية حيث أنها من اكثر المستشرقين اطلاعا على الاسلام وأحكامه, وهي دائما تسعى إلى تصحيح الصور المغلوطة التي نقلها بعض المستشرقين عن الاسلام , حيث حاولت جاهدة تقديم الصورة الواضحة و الموضوعية عنه, رفضت مريا شميل للدراسات الاستشراقية التي تتنطق من منطق الدونية للشرق, و التي يكون الغرض منها احكام السيطرة عليه, وفي مقابل هذا النقد أكدت أن هناك من المستشرقين المنصفين الذين يرون أن الاستشراق منهاج علمي لمعرفة الشرق والاستفادة منه, وهنا الاستشراق ليس عدوا للإسلام و الشرق بل قد يكون داعما ومصـــححا لصـــورته المشـــوه, تذهب شـــميل من خلال دراســـتها أن لطالما كانت تبحث عن تحقيق الانفتاح والتواصـــل بين الشـــرق والغرب , بل إن معظم كتبها كانت موجهة نحوى تحقيق الانفتاح بين الشـــرق والغرب حيث أنها تســـعى من خلال كتاباتها إلى تحقيق التواصـــل الفكري وتدعيم الحوار الحضـــاري بينهما , والهدف من ذلك تحقيق فضاء إنساني يتحقق في التعايش السلمي بين الحضارات.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق, أنا مريا شميل, الموضوعية, الانفتاح, الشرق, الغرب .

Summary:

Maria Shamil had the decisive role in defining Islam, civilizations and the East, as she is one of the orientalists most familiar with Islam and its rulings, and she always seeks to correct the false images that some Orientalists conveyed about Islam, where she tried hard to provide a clear and objective picture of it, she refused Maria Shamil for Orientalist studies that speak from the logic of inferiority to the east, and that is Its purpose is to tighten control over it, and in exchange for this criticism, I affirmed that there are fair-minded Orientalists who see Orientalism as a scientific method for knowing the East and benefiting from it, and here Orientalism is not an enemy of Islam and the East, but may be supportive and corrective of its distorted image. Shamil goes through Her study is that she has always been searching for openness and communication between East and West, but most of her books have been It is geared towards achieving openness between East and West, as it seeks through its writings to achieve intellectual communication and support civilizational dialogue between them, and the goal is to achieve a human space that is achieved in peaceful coexistence between civilizations.

key words:

Orientalism, I am Maria Shamil, objectivity, openness, east, west.

مقدمة:

تلعب المرأة دورا بالغ الأهمية في المجتمع , بل و الحياة الإنســـانية, فهي كما الرجل تفعل و تنفعل , تؤثر و تتأثر, فهي تهتم بكل ما يحيط بها, و يجول بعالمها , و تعبر المرأة عن اهتماماتها بطرق مختلفة سـواءً كانت فناً أو عملا أو حتى كتابة , و تعد هذه الأخيرة من المجالات المحبذة عند المرأة لتعبر بها عما يختلجها و القضـــايا التي تؤرقها, و من بين هؤلاء , و من بين هؤلاء النســـاء الذين اقتحموا عالم الكتابة من بابه الواســـع

فانكبوا فيه قراءة و كتابة , نجد المستشرقة الألمانية أنا مريا شميل , هذه الأخيرة التي كانت تمثل فعلا نموذج المرأة الكاتبة و الباحثة بل و المنصفة أيضا, اهتمت شميل بموضوع لم يسبق لنظيراتها من النساء اقتحامه و الكتابة فيه , ألا و هو موضوع الاستشراق , فبحثت في تاريخ الحضارة الإسلامية و تفحصت جوانبها , و بين الاقتراب حينا و الابتعاد حينا آخر , رسمت شميل معالم فكر استشراقي أقل ما قيل عنه أنه نموذج للموضوعية بلا منازع , و من خلال هذه المداخلة التي تعنى بالبحث في فكر هذه المرأة التي قل نظيرها سنحاول الإجابة على الإشكالية التالية:

كيف مثلت أنا مريا شميل المرأة في هذا المجال؟ و هل استطاعت فعلا أن تقدم نموذج جديد تتحقق فيه الموضوعية يستطيع مستشرقو الجيل الجديد أن يتبعوه ؟

أولا: من هي أنا مريا شميل ؟

ولدت أنا مريا شميل في 7 ابريل 1922 في ألمانية , من عائلة تعتنق المذهب البروتستانتي , ميسورة الحال عموما, نشأت مريا في حقبة تاريخية حرجة كانت تعيشها ألمانيا أنداك تزامنت نشأتها مع بديات قدوم ما يعرف بالاشتراكية القومية , التي عرفت أيضا بالنازية بقيادة هتلر, و في هذه الفترة تعالت الشعارات العرقية التي تعلي من قيمة الشعب الأري و تؤكد على مبدأ الدونية لغير هذا العرق , فالجنس الألماني هو أعرق أنواع البشر, بدأت مريا تتعلم اللغة العربية في عمر الخامس عشر و تعلمت أيضا دروس في علوم و مبادئ التاريخ الإسلامي, و الى جانب ذلك تعلمها للغلة الفارسية و التركية ,و في عام 1952 قامت شميل بأول زيارة لها الى العالم الاسلامي و بالتحديد للتركيا , و التي عادت إليها سنة 1956 و قد شغلت منصب أستاذة مساعدة في العلوم الاسلامية و اللغة العربية, و بعدها أستاذة كرسي في تاريخ الأديان في كلية العلوم الانسانية وبذات الجامعة لمدة خمس سنوات, و هنا في هذه المرحلة عمقت دراستها للإسلام على شبه القارة الهندية.

ثم بعد ذلك تعود شميل إلى موطنها سنة 1961لتشتغل في جامعة بون منصب مستشارة لشؤونها العلمية في مجال الدراسات الاسلامية إلى جانب عملها كأستاذة في اللغة العربية و الإسلامية , علاوة على اشرافها على مجلة تحرير تحمل اسم "فكر و فن" التي أتاحت لها فرصة لنشر الكثير من أبحاثها في الأدب الاسلامي , مما أهلها أن تكون نصب عيون أكبر الجامعات الأوروبية و أرقاها على الإطلاق, و تعاقبت كل الاحداث التاريخية القاسية من الحروب و النزعات, و في برلين بدأت دراستها الجامعية للاستشراق و حظرت درجة الدكتوراه تحت عنوان مكانة علماء الدين في المجتمع المملوكي, و في عام 1949انهتها عن عمر يناهز 19 سنة , و نشرتها مجلة علم الاسلام , علاوة عن عملها كمترجمة .

تعد أنا مريا شميل نموذجا رائع للذين أحبو بصدق الحضارة الإسلامية , من الذين وقفو على الإسهامات العظيمة التي قدمتها حضارتنا للإنسانية, و قدمت من خلال دراستها و أبحاثها خدمات رائعة للإنسان, و هي بالفعل تعد عميدة الاستشراق الألماني بلا منازع, و قد استطاعت بفعل دهائها على إدراك الكثير من الحقائق المعرفية التي عجز عن تحقيقها اغلب المستشرقين.

لتختم أنا مريا شـــميل حياتها ســـنة 23 يناير 2003, مخلفة وراءها ارث معرفي كبير لا يمكن للحروف أن تحصـــيه و لا يمكن لميزان أن يزن قيمتها , خلفت مريا فكرا كان عنوانه بالبند العريض المصـــداقية و الموضوعية و الانصاف .

ثانيا: مفهوم الاستشراق و صورة الشرق في ظله

قبل أن نتطرق إلى مفهوم الاستشراق و أهدافه لابد لنا من الإشارة إلى البدايات الأولى للدارسات الاستشراقية حيث يذهب الكثير من المفكرين الى أن " الحروب الصليبية كانت هي البدايات الاولى للاستشراق إذ أن هذه الحروب هذه الحروب كانت أخر مراحل الصراع الديني بين المسلمين و المسحيين, و أن هؤلاء ربما اقتنعوا بانه لا يمكن الانتصار على المسلمين "[1], حيث مثلت الحروب الصليبية ذلك الصراع الدموي بين الاسلام و المســيحية , و كانت هذه أخر المواجهات العســكرية بينهما, و هنا كأن الغرب اقتنع أنه لا يمكن أن نتغلب على الاسلام بل لابد من اتخاذ سبيل أخر و هذا السبيل ما قدمته الدراسات الاستشراقية .

و لا يمكن ربط الاستشراق بالحروب الصليبية وحدها ذلك لأنا هنا نسلم أن الاستشراق جاء فقط لدراسة الاسلام و ما يدور حوله فقط, غير أن الحقيقة تقول أن الاستشراق يعنى بدارسة الشرق ككل و الاسلام جزء من هذا الشـــرق الذي يؤرق الغرب و يخيفه., و لهذا كان لابد من ربط بدايات الاســـتشـــراق بالحركات الاستعمارية التي كانت تهدف إلى استنزاف ثروات الشرق و خيراته, و هناك من يؤكد أن الاستشراق طالما كان ملازما للحركات الاســتعمارية خلال القرن 18من خلال حملات نابليون على مصــر[2] , غير أن الواقع يثبت أن لوكان الاستشراق مرتبط بالحركات الاستعمارية لانتهى مع نهاياتها, و لكن الاستشراق دراسة لا تزال قائمة رغم نهاية الاستعمار, بيد أن الحركات الاستعمارية و الحركات الصليبية أعطت الانطلاقة للمستشرقين لدراسة الشرق و الاطلاع على مختلف جوانبه و استكشاف معالمه, فما هو مفهوم الاستشراق؟

أن المعنى العام للاستشراق يحمل مفهوم " معرفة الشرق و دراسته" [3], فالاستشراق في مفهومه العام هو معرفة يحصلها الغرب عن الشرق و دراسة بكل ما يتعلق به من قريب أو بعيد و هذه الدراسة تكون عن قصد تتخذ فيها كل الوسائل المتاحة , لها متخصصون يشتغلون عليها و هم المستشرقون.

و الاستشراق من وجهة نظر أخرى هو " المؤسسة المشتركة بالتعامل مع الشرق بإصدار تقارير حوله ... و هو بإيجاز اسـلوب غربي لسـيطرة على الشـرق"[4], فالمتعارف عليه أن الدراســات و التقارير التي يقدمها المســتشــرقون عن الشــرق ما هي إلا معلومات زائفة و مشــوهة باختلاف أنواعها و مضــامينها و باختلاف الفترات الزمنية لها, إذ انها تعبر فقط عن رغبة في السيطرة فالاستشراق هنا مؤسسة تشترك فيها الدول الغربية لأجل احكام سيطرتها على الشرق, و عندما نقول مؤسسة فإننا نسلم بوجود اطارات و هياكل و مختصين بها لتحقيق مأربها دون أن ننســى الوســائل و الاليات المتبعة في ذلك , و التي يحاولون من خلالها تقديم الدوافع التي تجيز لهم السيطرة على الشرق و أفكاره .

و كان لا بد لنا من التطرق إلى ادوارد ســعيد الذي تولى مهمة البحث فيما وراء الاســتشــراق في محاولة منه للكشـف عن حقيقة هذا المشـروع الغربي, و ذلك من خلال تقديمه" لصـورة تحليلية لنظرة الغرب للشـرق من واقع كتابات المسـتشـرقين و لعه كان يحرص على اسـتنطاق الواقع و تحليل الكتابات الاسـتشـراقية"[5] , حيث

يحاول كثير من الدارسين لعلى ابرزهم ادوارد سعيد حقيقية و مبسطة لفهم الدراسات الاستشراقية و الصورة التي ترسمها للشرق, فهو ينطلق من واقع ما يقدمه المستشرقون من تقارير يقدم مساءلة نقدية عن الغرض منها, فهو لا يمر عليها كقارء مطلع و لكنه يقف أمامها ناقدا و رافضا لكل تجاوزاتها .

و نجد ادوارد سعيد يعطي للاستشراق ثلاث معاني المفهوم الاول يحمل معنى المبحث الاكاديمي "فالمستشرق كل من يعمل في التدريس أو الكتابة أو اجراء البحوث في موضوعات خاصة بالشرق"[6] , و هنا يتجلى لنا تعريف الاستشراق من خلال تحديد مفهوم المستشرق أو القائم على الاستشراق و مهامه, فهو بمعنى عام مؤسسة أكاديمية يقوم فيها المستشرق بدراسة الشرق و الكتابة حوله .

و الاستشراق بمفهومه الثاني حسب ادوارد سعيد هو " اسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي بين الشرق و الغرب"[7], و القول بانه يعبر عن اسلوب تفكير هو اشارة إلى كونه طريقة و نمط خاص من الافكار , و هذا النمط قائم على ركيزة اساسية و هي فكرة التميز بين كل من الغرب و الشرق , فالدراسات الاستشراقية توضح ان لكل منهما وجوده المميز عن الاخر , وهنا يظهر دور الاستشراق في احداث القطيعة و الانفصال بينهما.

أما المفهوم الثالث الذي يقدمه ادوارد سعيد للاستشراق فهو أنه" اسلوب غربي للهيمنة على الشرق و اعادة بناءه و التسلط عليه "[8], و التعريف يوضح ان الاستشراق هو وسيلة هيمنه و هذا ما نجده مهيمنا في الفكر الغربي , الذي يرى ان الأنا الغربية لابد لها من تهميش الأخر الشرقي المضاد لها, إذ أن المستشرقين من ادعاءهم ان للاستشراق فقط ابعاد أكاديمية تهدف الى تحقيق المعرفة بالشرق , إلا أن هذا هو الوجه الظاهر له فقط, أما الهدف الحقيقي الكامن وراءه هو إحكام السيطرة على الشرق و استنزاف خيراته " الاستشراق اراد ان يكتب عن الشرق كما تصوره و اراده , و ليس كما هو عليه حقيقة"[9] , فكتابات المستشرقين تصور لنا شرقا غريبا عن ذاته لا يمت بصلة لشرق الموجود حقيقة , فهو يعبر فقط عما أراده الغرب أن يكون عليه, مرسوما في إطار محدد و ملونا بألوان يختارها الغرب له , و هنا تظهر لنا حقيقة الاستشراق التي كشف عن "طبيعة العقلية الغربية و نظرتها إلى الأخر أكثر مما يكشف عن طبيعة موضوعه المدروس"[10] , كما أن ما كتبه المستشرقون من كتابات تظهر و بشكل جلي التفكير الضيق للغربيين , الذي يعبر عن عقلية غربية متمركزة حول ذاتها , ترى نفسها فوق الأخر و تنظر اليه بعين الاحتقار من جهة أنها تتميز و تتفوق عليه في كل المجالات, إلا أن هذا و بالرغم من وجود مثل هذه النظرة من قبل بعض المستشرقين من قبل الغرب إلا أنه لابد أن هناك الكثير من المستشرقين الذين أنصفو الشرق في كتاباتهم " إذ أن كتابات المستشرقين منها الموضوعي النزيه, و منها الموضوعي المغري, الذي يهدف إلى الطعن و التشويه"[11] , و هنا لابد من الاقرار بانه يجب لنا العودة للكتابات الاستشراقية المنصفة فلا يمكن لنا الحكم على جمع المستشرقين بلا مصداقية و لا يمكننا وضعهم في دائرة واحدة لانهم ينقسمون فمنهم النزيه الذي يهدف الى بلوغ حقيقة الاخر و تبليغها بصدق متجنبا التشويه و التعصب في حين هناك المتعصب لذاته و ثقافته , هدفه تشويه صورة الشرق و اذلاله , و هنا **نجد هنري دي كاستري** من بين المنصفين للإسلام و يعد كتابه "الاسلام خواطر و سوانح " نموذجا لرؤية منصفة للإسلام و المسلمين, إذ نجده يذهب إلى أنه لم يقصد من خلال كتابه تمجيد الاسلام و رسوله , بل بين أنه عمل شاق و موقف محرج بحكم ما رسخ في أذهان الغرب من صور مشوه

عن الاســـلام , و كان هدفه الحقيقي هو تحقيق الفهم الصـــحيح للإســـلام و المســـلمين"[12] , فأمثاله من المستشرقين لا يرون الاسلام عدو له بل أنه يواجهون المشاكل و الضغوطات مع أوطانهم و ابناء شعوبهم في سبيل ايصال صورة الإسلام الحقيقية , و من هنا لابد من لإعادة النظر في الموقف الشائع من الغرب و رؤيته عن الإســـلام و المســـلمين, فليس كل الغربين لهم نظرة ضـــيقة فهناك المنصـــفون منهم , و لعلى الألمانية أنا مريا شميل قد أحدثت تطورا ملحوظا في المدرسة الاستشراقية الالمانية الغربية بدخول المرأة أولا في هذا المجال , و تمثيلها من جهة أخرى للنموذج المثالي للموضوعية في الدراسات الاستشراقية, **و السؤال المطروح هنا كيف جسدت أنا مريا شميل المرأة في هذا المجال ؟ و كيف تجلت الموضوعية في طرحها؟**

ثالثا: أنا مريا شميل دفاعا عن الاسلام و المرأة

لقد كان لشميل الدور الحاسم في التعريف بالإسلام و الحضارات و الشرقية حيث أنها من اكثر المستشرقين اطلاعا على الاســـلام و أحكامه, و هي دائما تســـعى إلى تصـــحيح الصـــور المغلوطة التي نقلها بعض المستشرقين عن الاسلام , حيث حاولت جاهدة تقديم الصورة الواضحة و الموضوعية عنه , حيث تقول " انني أقول دائما للغربين الذين يشوهون صورة الاسلام , أن الاسلام قد منح للإنسان حقوقه, خاصة النساء"[13], حيث أن الذين شوهوا صورة الاسلام يدعون أنه يقضي على حقوق الإنسان و يجعل منه عبدا, و خاصة المرأة التي طالما حاولت الكتابات الغربية تحريرها من قيود الدين الاســـلامي الذي يعد في نظرهم يمارس عليها الاضطهاد و يسلبها الحرية, و هنا تقول شميل: " من الغريب أن يوصف الاسلام أنه دين معادي للمرأة فغالبا ما علق محمد قائلا حبب اليا من دنياكم الطيب و النســـاء و جعل قرة عيني في الصـــلاة"[14] , و هنا تنتصر شميل للموقف الاسلامي من المرأة و المكانة العظيمة التي خصها بها , حيث ابدت اعجابها بما ورد في القرآن و ما قاله الرسول عليه السلام على المرأة مستشهدة بحديثه الذي يضع المرأة في مرتبة الطيب أو الرائحة الزكية .

كما أنها في موضع أخر تبين مكانة المرأة في قولها "إن الاسلام قد منح المرأة حق الاحتفاظ بما تملكه قبل الزواج و كذلك ما تكسبه أثناء زواجها و هذا يتضمن أن لها الحق في أي مهنة أو تجارة"[15] , و كأن شميل هنا تفند الطرح الغربي الذي يجعل من المرأة في يد الرجل و أنه يملكها بما تملك و أن حقوقها مسلوبة, حيث أنها تتمتع بكامل حقيقها و صـــلاحياتها قبل و بعد الزواج , و أعظم ما يقدمه لها الاســـلام هو حفاظه على نسبها , كما أنه يمنحها الحق و الحرية في ممارسة نشأتها عكس ما يتوهمه و يروج له من قبل المستشرقون ضيقي الافق.

وفي سياق متصل و نتيجة لما لحق الاسلام من إساءات جعلت منه صورة عن الارهاب الدموي , ها هي شميل تستحضر الأدوات النقدية لتصيح صورة الاسلام و ابراز جانبه المشرق الذي غيبه المستشرقون , بموضـــوعية لا يمكن أن تلغى إذا عرفنا أنها محبة للإســـلام و مدافعة عنه, إذ نجدها ترفض الفكرة الغربية القائلة أن الاسلام قد انتشر بالقوة بل باستخدام العنف الدموي من قبل المسلمين, و هذا الأمر حسب قولها: " شائع جدا في الغرب حيث يقولون أ، الاسلام لم ينتشر إلا بحد السيف و لكن الغرب يتجاهلون هنا حقيقة ثابتة و هي أن جميع الأديان قد استخدمت النار و الحديد في حروبها الدينية بما في ذلك المسيحة بيد أننا

نستطيع أن نقول من حيث المبدأ أن الفتوحات الإسلامية التي تمت بحد السيف كانت أسبابها و دوافعها سياسية بحت, فلم تحدث لتوسيع رقعة الاسلام كديانة "[16] , و هنا نجد شميل تدافع و بشراسة عن الاسلام حيث تتهم الغرب بأنه يحاول تضليل الحقيقة مستشهدة بالحروب الدينية المسيحية التي استخدمت فيها القوة و السيف و كانت حروبا دموية , و هذه حقيقة جلية للتاريخ لا يختلف حولها و لكل دين حروبه الخاصة التي تستوجب منه استخدام السيف, كما أنها توضح و بموضوعية تامة أن حروب الاسلام لم يكن غرضها فرض الدين على الأخر و إلزامه به, بل كانت نتيجة لدوافع سياسية و اقتصادية و إما دفاعا عن نفسها ضد الهجمات الخارجية , و في هذا الصدد تقول يجب أن لا ننسى أن الكثير من الحركات التي نطلع من خلالها على الاسلام لا علاقة لها بالإسلام بل هي حركات لها علاقة بالسلطة السياسية أكثر من الفكر الديني فهل نحكم على المسيحية من خلال الإرهاب الديني"[17] , و هنا تبرر شميل موقفها من خلال هذه الأحداث التاريخية, موضحة الصورة الحقيقة للإسلام التي غابت على الكثير من الغربين و منهم المستشرقين .

كما ترى شميل أن الأحكام الظالمة التي يقدمها للغرب ناتجة عن التصور و الفهم الخاطئ الذي تعرض له الدين الإسلامي , وهي تقر أن هذا الأخير بريء من الإرهاب و في هذا الصدد تؤكد أنها لم تجد في القرآن أو الحديث أي دعوة للإرهاب أو أي شكل من أشكال العنف , و هي تستشهد بقاعدة في الدين الإسلامي "عامل الناس كما تحب أن يعاملوك" و هذه قاعدة أساسية في التأسيس الأخلاقي الإسلامي"[18], حيث أن قراءتها العميقة للقرآن للحديث جعلتها تقول بصريح العبارة أن الارهاب لا يمت بصلة للإسلام بل تتجاوز ذلك الى التصريح مباشرة عن أن التعاطف و التسامح و الرحمة من صفات المسلم , و المسلم هو من يجسد جملة هذه القيم الأخلاقية في أفعاله و معاملاته مع بني جنسه دون مراعات للاختلافات على مختلف مستوياتها, فالغربيون لم يتجاوز النظرة السطحية للإسلام كما حملها لهم المستشرقين , بل أن ما وصل للغرب لا يعبر لا عن المسلمين و لا عن الاسلام, فهناك من الغربين من لم يطلع على الاسلام اطلاعا عميقا و لم يدرسه دراسة مباشرة بل نجدهم يتلقون أخباره و المعلومات الزائفة عنه على أنه دموي و عنيف , و بهذا يتشكل في عقولهم , أنهم فهموا الاسلام , و لكن في الحقيقة حرفت لهم الكثير من الحقائق عنه, فهم يتبعون أنباءً مضللة تغطي الوجه الحقيقي للإسلام فما يقدمه الاستشراق من تمثيل للإسلام يجعل منه دين عنف حيث يقدم الخطاب الاستشراقي للدين الاسلامي في صورة واحدة و ثابتة , إذ يتم تصوير الإسلامين على أنهم ارهابين و عطشى للدماء , و تعتبر شميل أن هذه الصورة من أسوء الصور التي قدمها الغرب عن الاسلام, فهو يحجزه في صورة الارهاب الدموي الذي لا يعرف غير العنف و التقتيل و هذه الصورة مجحفة و منتهكة لحق للإسلام, إذ نجد أن مصطلح الارهاب هو في حد ذاته هو صنيع الغرب, ناتج عن الفهم الخاطئ و التأويل الكاذب الذي يرسم من خلاله الإسلام بأنه دين رعب و خوف يجب الحذر من وجوده [19]. و ترى شميل أن هذا للفنون و الرسومات الكاريكاتورية دورا في تشويه صورة الاسلام و إظهاره في صورة شهوانية , إذ ساهمت هذه الفنون و بشكل فعال في تثبيت و نشر صورة الاسلام الشهواني و لعلي هنا أتفق مع إدوارد سعيد بأن هذه الصور أسهمت في تشويه صورة الاسلام في الغرب"[20] , و قد انتقلت شميل ما تتناقله وسائل الاعلام من الرسمات الكاريكاتورية و الفنون التي شوهت صورة الدين الاسلامي في عيون , بل أصبحت هذه

الصورة المشوه بمثابة حقيقة بديهية مسلم بها, و هذا ما ترفضه أنا مريا شميل و تنديد به , فقهي تتفق مع إدوارد سعيد في أن لوسائل الاعلام دور بالغ في الإساءة للإسلام , و في رسمه و إظهاره في صورة نمطية واحدة في مختلف المحتويات الاعلامية , و في هذا الصدد يقول إدوارد سعيد : " كتب التاريخ المدرسية و القصص المرسومة الكاريكاتورية و المسلسلات التلفزيون و الافلام , سوف تجد التصوير الذي لا يختلف ابدا للإسلام "[21] , حيث أن الغرب يعلم أبناء من خلال الكتب المدرسية و القصص و حتى المسلسلات أن الاسلام يعبر عن صورة نمطية لا تختلف , فهو دائما في الهامش و يمثل الدونية و الوحشية و العنف الدموي و كأن هذه الوسائل تقوم بعملية تغطية شاملة للإسلام , و كأن هذه الوسائل كافة تتضامن مع بعضها البعض في تقديم الاسلام في أسوء صورة ممكنة , في حين تحجب أو تغيب الجانب المشرق منه, و هنا تجلى التأثير البالغ بمختلف أشكاله في ممارسة تغطية تظلل الفرد و تقتل الوعي لديه بالحقيقة و تحشو دماغه بأفعال مغالط فيه , و هنا تقول شميل: " ليست معرفتي بالإسلام مستمدة من البحث عشرات السنين في الآداب و الفنون الاسلامية فحسب , بل كذلك من معاشرة الأصدقاء المسلمين من طبقات الشعب كافة"[22] ,و هنا تقف مريا شميل موقف الحائر من الغربين الذين اكتفوا بالاطلاع عن مجرد ما تتناقله وسائل الاعلام , و اصدار أحكاما قاسية عن الاسلام, ذلك أن الحقيقة لا يمكن الوقوف عليها من خلال ما تبثه هذه الوسائل بل لابد من دراسة عميقة و فتح جسور التواصل بين الغرب والمسلمين لتحقيق الرؤية الصحيحة و إضفاء التسامح و تحقيق السلام و المصداقية بين الثقافتين دون المساس بخصوصية كل منهما , و هنا نطرح التساؤل التالي: كيف رسمت لنا شميل معالم هذا الانفتاح ؟ وهل هناك أمل في تحقيق فضاء إنساني يتعايش فيه الغرب و الشرق معا كما رسمته شميل في دراستها؟

رابعا: دعوة الانفتاح بين الشرق و الغرب عند أنا مريا شميل

ذاكرتنا البشرية اليوم مثقلة بالكثير من الصور المؤلمة كالحروب و مجازر ارتكبها الإنسان, بحق الإنسان, و مجرد تخطينا لتاريخنا البشري و أحقاد أباءنا و أجدادنا هو في حد ذاته عمل نبيل , و بمجرد تنظيف أفكارنا و مشاعرنا من هذا التاريخ المظلم هو بحد ذاته رسالة إنسانية لأنه في بحثنا عن صيغتنا الاجتماعية و طبيعتنا الذاتية يجب علينا أن نجرب كل الاحتمالات للانتصار على هذا العدوان على البشرية بأدوات جديدة, و تدابير عقلية و إنسانيه و أهمها التسامح الذي اعتبره نوع من المقاومة الفعالة لبشاعة هذا العالم علينا أن نفهم التسامح و الطفح كما فهمته حنة أردندت كفعل منقذ للإنسان, من نشاط أفعاله و أفق يفتح له باب المستقبل بالتحرر من تبعات أفعاله و من التخلص من ثقلها على كتفه ,و من هنا تبدأ المهمة التاريخية للشعوب عندما يتم ادراك أهمية نبذ الوعي الزائف الذي يهدد قيام الأخر و الأنا قبل كل شيء , ترى شميل أ الاستشراق نافذة للحوار و التفاهم بين الأديان و الثقافات و أن المسلمين عليهم أن يدركوا أن الاستشراق ليس عدوا الاسلام بل وسيلة لمعرفته, و أن من الخطأ أن نضع جميع المشرقين في بوتقة واحد[23]

و هنا سنخاطب الأنا التي هي أنت, و الأنت التي هي أنا , سنتحدث عن التذاوت علة كل المشاكل و المآزم التي وقعت فيها البشرية كالتشيؤ و الأنانية و الاحتقار و الازدراء , هذه الأمراض التي باتت تفتك بالجسم الاجتماعي , و تنخره من الداخل فتأكله شيئا فشيئا, و وقود هذه المهمة التاريخية هم هؤلاء المثقفون

, الفلاسفة و الأدباء , الفنانون و المهندسون و الأطباء , بل كل من يحمل في جسمه جينات إنسانية , فنحن جميعا شـركاء بحكم الإنسـانية مهما اختلفت ألواننا و أجناسـنا و أوطاننا في هذا التغيير, و من واجبنا أن نتحدث عن القيمة الكلية التي تنطوي و تذوب في كنفها القيم الأخرى ألا و هي العدالة , فهي وحدها القادرة على أن تكفل لنا العيش المشترك و تحقق لنا ذواتنا الفعلية في ظل التعدد و الاختلاف .

و بتالي النقطة الأولى التي ينبغي أن ندركها هنا و منها ننطلق هي إدراك مفهوم الاختلاف في حد ذاته, و أن ندرك إدراكا بالمطلق أن الاختلاف سنة كونية و قانون حتمي مفروض علينا كما فرضت علينا القوانين الطبيعية كالجاذبية مثلا و بتالي التفكير في إلغاء هذا الاختلاف أو تجاهله , هو فعل في غاية السذاجة , بل الغباء ذاته , بل لابد للفكر أن يتوجه إلى التفكير في كيفية اسـتثمار هذا الاختلاف في سـبيل ترقية الأنا و الأخر على حد سواء , فأفضل استثمار على وجه الأرض هو الاستثمار في الإنسان , و أفضل ما نستثمره فيه هو الاختلاف ذاته , بحكمه حقيقة قائمة لا مجال لتجاوزها , هذا ما أدركته المفكرة المسـتشـرقة الألمانية أنا مريا شـميل , لقد أدركت عمق قضـية الاعتراف بالأخر و ضـرورة الانفتاح عليه, من خلال الحوار و البحث العلمي الموضـوعي , و قد قامت بالعديد من المجهودات لأجل الدفاع على ذلك ,و كرسـت حياتها انتصـارا لهذه القضـية الانسـانية و الحضـارية , لتحدث بذلك طفرة نوعية في مدرسـة الاسـتشـراق الألمانية , طفرة تميزت بالانفتاح على الأخر و الإيجابية على الثقافة الإسلامية لتضرب لنا شميل نموذج ستحق التقدير في هذا الموضوع فكانت بذلك من أهم المستشرقين الذين دعوا بصريح العبارة إلى أهمية الحوار الحضاري و التواصـل الفكري مع الأخر , دون مراعات للحواجز الدينية و الثقافية التي تتفرد بها كل حضـارة فلا سـبيل أمام البشرية إلا هذا الطريق حتى تنتشل نفسها من جحيم الحروب و النزاعات التي لا تنتهي .

تأسس فعلا منتدى يحمل اسم مريا شميل للحوار الثقافي و الجميل أنه فعلا يعد تتويجا لتضـحياتها, فبناءً على توصـياتها تم رئاسـته من قبل شـخصـين مختلفين عقائديا و هما الأفغاني توتاخيل الرئيس السـابق للمجلس الإسـلامي في ألمانيا, و الألماني كلاوس ليفر نغهاوزن, و يبقى الاحترام هو سيد العلاقة بينهما رغم اختلاف العقيدة, و الصدق المنشود من هذا من هذا العمل ليس أكثر من مناشدة السلام عبر العالم, و تجنبا لنشوب الحروب و الصـراعات بين الحضـارات و نستذكر هنا مقولة الباحث سائد دازدار المشـهورة " ادعيني اليوم إلى كنيستك أو الى مسجدك و بعدها إلى معبدك, و لكن دعنا نقيم صـلاه تدعو للألفة و السـلام " إن هذا التعانق بين الحضـارات و العقائد لا يلغي بالضـرورة الخصـوصـية أو الفردنة التي تتميز بها الواحدة عن الأخرى , و لكن الأمر الأكيد أن هذا التوافق أو ما تسميه شميل بالحوار الثقافي و الحضـاري هو ما يمكنه أن يبني جسـرا فكريا يمتد إلى المسـتقبل ولا حد لامتداداته , فكلنا بشـر و نحن جميعا بحكم هذا نحن نواجه نفس المعضلة بدلا من أن نهدر طاقتنا فيما يعود بالسيئ و الأسوأ على البشرية قاطبة.

و بعد الدور الحاسم الذي لعبته أنا مريا شميل في التعريف بالإسـلام و الحضـارات الشرقة نجد تسعى دائما من خلال دراسـتها إلى تحقيق ذلك النوع من الانفتاح بين الشـرق و الغرب , في محاولة منها لإرسـاء قواعد الحوار الحضـاري و تحقق التواصـل الفكري فهي تقول: "لقد كتبت أنا مريا شـميل كل ما كتبته من أجل فكرة عظيمة , فكرة تحقيق المزيد من التسـامح و التفاهم و السـلام بين شـعوب العالم و ثقافته و أديانه "[24], حيث

أنها تقر بأن هدفها من الكتابة لم يكن عبثا بل يحمل رسالة إنسانية راقية موجهة للبشرية قاطبة من أجل تحقيق فكرة الحوار و التواصل و بناء جسر يربط بين مختلف الحضارات و يؤسس لقيم التعاون في مختلف المجالات خاصة في المجال المعرفي , و أن الجدير بنا أن نستثمر في هذا الاختلاف و جعله لصالحنا بدلا من نظرتنا القاصرة اليه, و في هذا السياق يقول روجي غارودي: لن يكون هناك حوار حقيقي ما لم يقتنع كل منا بأن عليه أن يتعلم شيء من الأخر"[25] , و هنا يقر غارودي أن الحوار الحقيقي لن يتأسس إلا لما يقتنع كل طرف بحاجاته غلى علوم غيره, ذلك أن هذا الأمر عينه يساهم في تطوير المعرفة البشرية من زاوية , و يرقى بالإنسانية من جهة أخرى, و كأنه هنا يرفض فكرة السيطرة الغربية و التفوق العلمي الذي تدعيه, و يؤكد هنا على ضرورة إعادة الغرب إلى حجمه الحقيقي من خلال حوار حقيقي بين الحضارات[26], و تختار شميل مصطلح الحوار ذلك أن من شروط هذا الأخير حتى يكون صحيحا لا بد من المساواة بيتن الطرفين المتحاورين , مما يعني أنها و غارودي و غيرهم ممن يدعون لحوار الحضارات يؤكدون على ضرورة تجاوز تلك النظرة الدونية للأخر , كما يفعل الغرب ذلك ,مضيفا قوله: " حوار الحضارات حقيقة ليس بجائز إلا إذا اعتبرت الانسان الأخر جزء من ذاتي, و يعْبر كياني و يكشف لي عما يعوزني"[27] و هذا الحوار الذي يدعوا اليه غارودي يساعدنا على ان ننفتح في الصعيد الثقافي[28], حيث ينبغي أن ينظر كل طرف إلى الأخر على أنه جزء منه و أنه لولا الأخر لم يكن للأنا كيان, إن الاسلام يوشك أن يصور على أنه العدو الجديد للغرب, و أعتقد أن الشعوب يمكن أن تتجاوز ذلك من خلال حوار أصيل يحترم فيه الطرفين الأخر, دون أن يعني ذلك القضاء على الاختلافات بينهما[29], و كان هذا هو الهدف المنشود الذي سطرته شميل طيلة بحثها و دراساتها, و يمكن أن نختم هذا العنصر بقولها الصريح و موقفها الجريء الذي عاندت به جميع معارضيها حيث تقول عن الإسلام: " **إنه هو الذي انتج الحضارة التي سارت على سنة المساواة و العدالة بين البشر** [30] "

خاتمة :

و بناء على ما تقدم طرحه يمكننا استخلاص ما يلي :

- أن الدراسات الاستشراقية لم تكن حكرا على الرجال بل اقتحمت المرأة هذا المجال في محاولة منها لفهم طبيعة العلاقة بين الحضارات , لتحدث بذلك تطور في المدرسة الاستشراقية الالمانية على وجه الخصوص و الأوربية على وجه العموم, و تعد شميل النموذج المثالي لتعبر عن هذا التطور .
- رفض مريا شميل للدراسات الاستشراقية التي تنتطق من منطق الدونية للشرق, و التي يكون الغرض منها احكام السيطرة عليه, و في مقابل هذا النقد أكدت أن هناك من المستشرقين المنصفين الذين يرون أن الاستشراق منهاج علمي لمعرفة الشرق و الاستفادة منه, و هنا الاستشراق ليس عدوا للإسلام و الشرق بل قد يكون داعما و مصححا لصورته المشوه.
- تقدم شميل رؤية منصفة للإسلام من خلال المرأة فهي ترى أن الاسلام لم يظلم المرأة كما يدعي الغرب بل العكس من ذلك إنه يكرمها و يعطيها جميع حقوقها و هذا ما تنص عليه مصادر الاسلام , لتتجاوز بذلك شميل السطحية في الطرح إلى تحليل عمق الظاهرة و البحث عن الحقيقة الكامنة خلف الكلمات .

- تم تشويه صورة الاسلام و تقديمه للغرب في أسوء صورة من قبل بعض المستشرقين الغرب الذين تعمدوا ذلك تعصبا منهم أكثر من تطلعهم للحقيقة فراح الكثير منهم يخلط بين الموضوعية و الصدق في التأريخ أو البحث , و شتانا بين المفهومين .
- تساهم وائل الاعلام كذلك و بشكل رهيب في هذا التشويه , فانتشرت الصور السيئة عن الاسلام كانتشار النار في الهشيم بفعل الدور البالغ لهذه الوسائل, فطورت الاسلام في صورة الإرهاب الدموي و هنا تقف أنا موريا شميل ا موقف الرافض و المدافع عن الاسلام , حيث كان لها الفضل في التعريف بالإسلام و تصوير صورته , بل تؤكد على أن الأحكام ظالمة نتجت عن الفهم القاصر للشرق, و تقر أن الإسلام بريء من الإرهاب.
- تذهب شميل من خلال راستها أن لطالما كانت تبحث عن تحقيق الانفتاح و التواصل بين الشرق و الغرب , بل إن معظم كتبها كانت موجهة نحوى تحقيق الانفتاح بين الشرق و الغرب حيث أنها تسعى من خلال كتاباتها إلى تحقيق التواصل الفكري و تدعيم الحوار الحضاري بينهما , و الهدف من ذلك تحقيق فضاء إنساني يتحقق في التعايش السلمي بين الحضارات.

قائمة المراجع

1. ادوارد سعيد , برنارد لويس , الاسلام الاوصولي , دار الجيل بيروت, ط1, 1994 .
2. ادوارد سعيد, الاستشراق, المفاهيم الغربية للشرق, ترجمة محمد عنان, ظط1, رؤية للنشر و التوزيع , القاهرة, 2006 .
3. ادوارد يعيد , تغطية الاسلام, ترجمة محمد عناني , ط1, رؤية للنشر و التوزيع, القاهرة, 2006 .
4. انا مريا شميل , روحي أنثى, ترجمة لميس قايد, ط1, الكتب خان للنشر و التوزيع, القاهرة , 2016 .
5. أنا مريا شميل , نموذج مشرق للاستشراق, ترجمة ثابت عيج, ط1, دار الرشاد, القاهرة , 1998 .
6. أنا مريا شميل, الجميل و المقدس, ترجمة عقيل يوسف عيدان ,ط 1, الدار العربية للعلوم ناشرون, بيروت, 2008 .
7. روجي غارودي , الاصوليات المعاصرة, ترجمة خليل أحمد خليل, دط, دار عام الفين, باريس, 2002 .
8. روجي غارودي, حوار الحضارات , ترجمة عادل العوا, ط4, عويدات للنشر و الطباعة, بيروت, 1999
9. عبد الله ابراهيم , الثقافة العربية و المرجعيات المستعارة , منشورات الاختلاف, ط1, 2010 .
10. عبد الله محمد الأمين النعيم, الاستشراق في السيرة النبوية, دار الفكر, دمشق,ط1, 1997.
11. محمد على صغير , المستشرقون و الدراسات الاسلامية , دط , بيروت, 1996 .
12. محمد فاروق النبهان, الاستشراق تعريفه مدارسه أثاره, المنظمة الاسلامية للعلوم و الثقافة , الرباط, دط , 2012.
13. محمد فتح الله الزيادي, الاستشراق اهدافه و وسائله, دار قتيبة, دمشق, ط1, 1998.
14. هنري دي كاستري, الاسلام خواطر و سوانح, ترجمة أحمد فتحي زعلول , ط1, دار طيبة للطباعة , القاهرة , 2008.

الهوامش

[1] محمد فتح الله الزيادي, الاستشراق اهدافه و وسائله, دار قتيبة, دمشق, ط1, 1998, ص 25

[2] محمد فتح الله الزيادي , المرجع نفسه نفسه, 25

[3] عبد الله محمد الأمين النعيم, الاستشراق في السيرة النبوية, دار الفكر, دمشق,ط1, 1997, ص 15

[4] محمد فتح الله الزيادي , مرجع سابق, ص 16

[5] محمد فاروق النبهان, الاستشراق تعريفه مدارسه أثاره, المنظمة الاسلامية للعلوم و الثقافة , الرباط, دط , 2012, ص 77

[6] ادوارد سعيد, الاستشراق, المفاهيم الغربية للشرق, ترجمة محمد عنان, ظط1, رؤية للنشر و التوزيع , القاهرة, 2006, ص 44

[7] المرجع نفسه , ص 45

[8] نفسه , ص 46

[9] محمد فاروق النبهاني , ص 77

[10] عبد الله ابراهيم , الثقافة العربية و المرجعيات المستعارة , منشورات الاختلاف, ط1, 2010, ص 185

[11] هنري دي كاستري, الاسلام خواطر و سوانح, ترجمة أحمد فتحي زعلول , ط1, دار طيبة للطباعة , القاهرة , 2008, ص 3

[12] المرجع نفسه, ص 6

[13] أنا مريا شميل , نموذج مشرق للاستشراق, ترجمة ثابت عيج, ط1, دار الرشاد, القاهرة , 1998 ,ص 57

[14] انا مريا شميل , روحي أنثى, ترجمة لميس قايد, ط1, الكتب خان للنشر و التوزيع, القاهرة , 2016 ص 43

[15] أنا مريا شميل , نموذج مشرق للاستشراق, مرجع سابق , ص 57

[16] أنا مريا شميل, المرجع نفسه, ص59

[17] أنا مريا شميل, نفسه, ص 62

[18] أنا مريا شميل, الجميل و المقدس, ترجمة عقبيل يوسف عيدان ,ط 1, الدار العربية للعلوم ناشرون,بيروت, 2008, ص17

[19] ادوارد سعيد , برنارد لويس , الاسلام الاوصولي , دار الجيل بيروت, ط1, 1994 ص 26-37

[20] أنا مريا شميل , نموذج مشرق للاستشراق , مرجع سابق, ص 63

[21] ادوارد يعيد , تغطية الاسلام, ترجمة محمد عناني , ط1, رؤية للنشر و التوزيع, القاهرة, 2006ص 74

[22] أنا مريا شميل , الجميل و المقدس, مرجع سابق, ص 35

[23] محمد على صغير , المستشرقون و الدراسات الاسلامية , دط , بيروت, 1996, ص 29.

[24] أنا مريا شميل , نموذج مشرق للاستشراق,مرجع سابق, ص 48

[25] روجي غارودي , الاصوليات المعاصرة, ترجمة خليل أحمد خليل, دط, دار عام الفين, باريس, 2002, ص 135

[26] المرجع نفسه , ص 136

[27] روجي غارودي, حوار الحضارات , ترجمة عادل العوا, ط4, عويدات للنشر و الطباعة, بيروت, 1999, ص 158

[28] المرجع نفسه, ص 216

[29] أنا مريا شميل, الجميل المقدس , مرجع سابق, ص 38

[30] المرجع نفسه, ص 39